العصر العباسي الرابع

أو القرنان الأخيران من الدولة العباسية
من سنة ٤٤٧–٦٥٦هـ

هو آخر الأعصر العباسية يبدأ بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ وينتهي بدخول بغداد في حوزة المغول سنة ٦٥٦هـ على يد هولاكو، وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر، وقد جرت فيه انقلابات سياسية كان لها تأثير كبير في المملكة الإسلامية والأمم الإسلامية.

(١) الانقلابات السياسية

الدولة السلجوقية

أهم تلك الانقلابات ظهور دولة السلاجقة وهي تختلف عما تقدمها من الدول التركية بأنها لم تنشأ فرعًا للدولة العباسية، وإنما قامت بها أمة ذات بطش وسلطان حملت على المملكة الإسلامية وفتحتها بالسيف، كما تمتاز الدولة البويهية عن سائر الدول الفارسية الصغرى، جدها سلجوق بن بكباك أمير تركي في خدمة بعض خانات تركستان، ظهرت والمملكة العباسية قد تضعضعت بالانقسامات المتوالية وضعف شأن البويهيين الفرس في العراق وفارس والفاطميين العرب بمصر، وهما دولتان شيعيتان كانتا قد تغلبتا على أهل السنة وأكثرهم من الأتراك والأكراد والعرب، فطمع سلجوق باكتساح تلك المملكة،

وعلم أنه لا يستطيع ذلك إلا إذا أسلم فأسلم هو ورجاله ونهض بهم من تركستان غربًا فقطعوا نهر جيحون وهم يفتحون ويكتسحون حتى امتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض، وتفرعوا إلى دول يمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها ومدتها. فالسلاجقة العظام حكموا من سنة ٤٢٩–٥٥٢هـ وسلاجقة كرمان من ٤٣٣–٥٨٣هـ وسلاجقة الشام من ٤٨٧–٥١١هـ وسلاجقة العراق وكردستان من ٥١١–٥٩٠ وسلاجقة بلاد الروم من ٤٧٠–٧٠٠هـ فمدة الدولة السلجوقية على الإجمال نحو ثلاثة قرون، وبلغ اتساع مملكتها من حدود الصين إلى آخر حدود الشام، ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ وهي في السنة التي اخترناها فاتحة للعصر العباسي الرابع.

الصليبيون

وفي أثناء هذه المدة حمل الإفرنج على سوريا وفلسطين تحت راية الصليب ففتحوهما وتسلطوا عليهما من سنة ٤٩٢–٥٨٢هـ واختلطوا بالأهلين، ولا سيما المسيحيين بالزواج وغيره، والإفرنج يختلفون بأصولهم ولغاتهم وآدابهم وعاداتهم عن العرب أكثر من اختلاف الأتراك والفرس عنهم، فاختلاطهم بأهل الشام وفلسطين تسعين سنة خلف في نفوس أهليهما آثارًا اجتماعية وأخلاقية كان لها تأثير في آداب اللغة.

المغول

وفي أواخر هذا العصر ظهر جنكيزخان القائد المغولي، وحمل على المملكة الإسلامية في أول القرن السابع[١] فاكتسحها وخرب مدنها وأحرق مكاتبها وقتل أهلها مما لم يسبق له مثيل، ومن نسله ظهر هولاكو وفتح بغداد وخربها، وقتل خليفتها المستعصم سنة ٦٥٦هـ، وفر من نجا من العباسيين إلى مصر فانتقلت الخلافة العباسية إلى هناك، ولهؤلاء المغول تأثير في تاريخ آداب اللغة لكثرة ما أحرقوه من الكتب، وقد ظهرت نتائج ذلك في العصور التالية.

شكل ١: هولاكو.

الأندلس

وفي هذا العصر أيضًا انحلت دولة الأندلس وذهبت وحدتها وانقسمت إلى إمارات كما انقسمت الدولة العباسية قبلها، وكما تولى أمراء الفرس والأتراك والأكراد والعرب على فروع المملكة العباسية ففروع مملكة الأمويين في الأندلس آلت السيادة فيها بعد بني مروان إلى أمراء أكثرهم من البربر والموالي، تغلب كل منهم على ما في يده من أوائل القرن الخامس للهجرة، فصاروا دولًا صغيرة عُرفت بملوك الطوائف.

وتوالى الانقسام بين تلك الدول والإفرنج يغتنمون ضعفهم، ويسترجعون بلادهم إمارة إمارة وبلدًا بلدًا، حتى أخرجوا المسلمين كافة من إسبانيا، وآخر مدينة فتحها الإفرنج غرناطة كانت في حوزة آل نصر وفر ملكها أبو عبد الله بن علي سنة ٨٩٧هـ وهو آخر أمراء المسلمين في الأندلس.

فالانقلابات السياسية المشار إليها أثرت في الأحوال الاجتماعية لاشتغال الناس بالفتن والحروب وفساد الأحكام، لكن تأثيرها في آداب اللغة لم تظهر ثماره إلا في العصر المغولي

وما بعده كما سيجيء. أما العصر العباسي الرابع الذي نحن في صدده فظهرت فيه ثمار آداب اللغة الطبيعية التي نمت وأورقت وأزهرت في العصر العباسي الثالث إذ تسابق الناس إلى الاشتغال بالعلم والأدب للأسباب التي قدمناها في كلامنا عن ذلك العصر في الجزء الماضي.

وتكاثر الأمراء المسلمون في هذا العصر واختلفت لغاتهم وعناصرهم، لكنهم كانوا يتنافسون في تنشيط اللغة العربية؛ لأنها لغة الدين والعلم والسياسة، فازدهت وكثرت فيها المؤلفات الكبرى على أسلوب يخالف أساليب الأعصر الماضية، وساعد على ذلك رغبة السلاطين الأيوبيين في العلم وأهله، فإن دولتهم انقسمت إلى فروع حكمت مصر ودمشق وحلب وما بين النهرين وحماه وحمص واليمن وهي أهم الأصقاع العربية.

الأيوبيون والفاطميون

وكان الأيوبيون يقربون الأدباء ويخلعون عليهم، والأيوبيون أكراد لكنهم تعربوا وأحبوا لغة العرب وآدابها، ونبغ منهم جماعة من أهل الأدب والشعر والعلم، أشهرهم أبو الفداء المؤرخ الشهير، وبهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ كان شاعرًا أديبًا، والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦هـ كان مشتغلًا بتحصيل الكتب النفيسة ويجيز الأدباء، والملك المؤيد صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١ كان من أهل العلم اشتملت خزانته على مئة ألف مجلد، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ كان رغابًا في الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة.

غير ما كان للفاطميين قبلهم من العناية باللغة العربية وآدابها، وقد وجهوا التفاتًا خاصًّا إلى لغة الدواوين؛ فعينوا عالمًا بالنحو يراقب لغة الإنشاء فيصلح ما قد يقع من الخطأ النحوي أو اللغوي، تولى هذا المنصب عندهم طاهر بن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩هـ وابن البري المتوفى سنة ٥٨٢ وسيأتي ذكرهما بين علماء اللغة.

وزد على ذلك أن اتساع دائرة الحروب والفتوح في هذا العصر بعث على اختلاط الأمم من الأتراك والمغول والإفرنج والجركس والكرج وتعددت الدول الإسلامية المستقلة حتى صارت تعد بالعشرات، واختلاط الأمم يفتق القرائح والتزاوج بين الأباعد يقوي الأبدان والعقول.

(٢) مميزات هذا العصر

المدارس

يمتاز هذا العصر عما تقدمه بانتشار المدارس في العالم الإسلامي وتغيير طرق التدريس عما كانت عليه قبلًا؛ لأن العلم نضج في الدول الإسلامية ونبغ العلماء والفقهاء والأدباء في القرون الأولى للهجرة وليس في الإسلام مدرسة مثل مدارس هذه الأيام إلى القرن الخامس للهجرة، وأول من بناها الأعاجم لأسباب سياسية ذكرناها في تاريخ التمدن الإسلامي (ج٣)، واشتهر بإنشاء المدارس في الإسلام نظام الملك الفارسي وزير ملك شاه السلجوقي التركي، وأشهر مدارس ذلك العصر المدرسة النظامية في بغداد نسبة إليه، كان لها شأن كبير في العالم الإسلامي، ونبغ منها طائفة كبيرة من العلماء وغيرهم، وبالجملة فالعناية كانت متجهة في هذا العصر إلى إنشاء المدارس كما كانت متجهة في العصر الماضي إلى إنشاء المكاتب.

المعاجم التاريخية

رأى الأدباء والعلماء ما توالى على المملكة الإسلامية من الفتوح وما لحقها من التخريب وشاهدوا أو سمعوا بضياع الكتب بمصر والشام وخراسان والأندلس بالفتن ونحوها فعمدوا إلى الاحتفاظ بتلك الآثار واكتنازها بالتلخيص والجمع مع حذف الأسانيد بحيث تجمع الحقائق الكثيرة في الحجم الصغير، ويكون الكتاب الواحد زبدة عشرات من الكتب، كما فعل ياقوت بمعجمه، وابن خلكان بوفياته، وابن أبي أصيبعة بطبقاته، فاكتفوا تقريبًا بجمع ما لديهم وتبويبه وتسهيل الانتفاع به بترتيبه على السنين أو على حروف المعجم، فجاءت مؤلفاتهم ضخمة وافية بينها طائفة من المعاجم التاريخية والجغرافية، بحيث يصح أن يسمى هذا العصر عصر المعاجم، وهي من أهم ما بين أيدينا من كتب العلم العربية، وبينها أهم مآخذنا في التاريخ والجغرافية، وإن كان بعضها صدر بعد انقضاء هذا العصر بسنين قليلة لكنه يعد من ثماره. ولذلك رأيت في بعض كتابه إعجابًا بأنفسهم لما استطاعوا جمعه من الحقائق، يظهر ذلك في مقدمات كتبهم كما فعل ياقوت في مقدمة معجم الأدباء وابن الأثير الأديب في مقدمة المثل السائر.

الصناعة اللفظية

ورغبتهم في إتقان التأليف بعثتهم على إتقان الصناعة اللفظية والتفنن في البديع والجناس، فوضعوا علم البيان أو دونوه وضبطوه حتى صار علمًا قائمًا بنفسه، وأتقنوا المقامات أيضًا وهي من قبيل الصنائع اللفظية. ويقال على الإجمال: إن الإنشاء أو الترسل مال في هذا العصر إلى التأنق في اللفظ فوق ما كان في العصر السابق. وأصبح عندهم لكل فن من فنون الأدب أساليب معينة يختص به عند أهله كالنسيب المختص بالشعر والحمد المختص بالخطب والدعاء المختص بالمراسلات، وقد كان شيء من ذلك قبلًا لكنه أصبح في هذا العصر فنًّا بقواعد، وهذا التقييد في الإنشاء هو ما يسميه الإفرنج بالطريقة المدرسية، وقد علمت أنها نشأت في العصر الماضي لكنهم وسعوها في هذا العصر وما بعده حتى أوشكت أن تخرج إلى عكس المراد بها كما ستراه.

ويمتاز هذا العصر بقلة ما ضاع من مؤلفاته بالنسبة إلى الأعصر الماضية، فقد رأيت في كلامنا عن العصر العباسي الأول وبعده أن بعضهم قد يخلف مئة كتاب أو بضع مئات، فلا يبقى منها إلا بضعة كتب أو لا يبقى منها شيء، أما مؤلفات هذا العصر فبقي كثير منها.

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في «تاريخ التمدن الإسلامي» ١٠٤ ج٤.